

النكبة الفلسطينية سنة ١٩٤٨ في الرواية العراقية المعاصرة

م.د. صدام حسن صالح

جامعة سامراء / كلية الآداب قسم اللغة العربية

The Palestinian Nakba of 1948 in the Contemporary Iraqi Novel

Prof. Dr. Saddam Hassan Saleh

Samarra University / College of Arts, Department of Arabic Language

Saddam.h.salih@uosamarra.edu.iq

الملخص

يركز هذا البحث على مناهج هيكلية العقائد والمدارك الخاصة بالنكبة الفلسطينية في الوعي الجماعي الإسرائيلي كما تتكشف في الخطاب الإعلامي في إسرائيل. ويهدف إلى الوقوف على مدى الاعتراف الإسرائيلي بالنكبة الفلسطينية أو التكرار لها، ومدى قبول المسؤولية عن وقوعها. وتحمل أنماط الاعتراف بالنكبة، والتكرار لمجرد حدوثها أو المسؤولية عنها، ما قد يمكّننا من الإطّلال على الشكل الذي يُنظر فيه إليها داخل الحيز العام الإسرائيلي، وعلى مدى كون النكبة وذاكرتها عنصرين مهمين في بلورة الأنماط السلوكية لدى الجمهور الإسرائيلي في السنين الأخيرة. ويتضح من نتائج البحث أن المعتقد الأبرز في الخطاب العام الإسرائيلي تجاه النكبة يكمن في الربط بين ثلاثة ادعاءات تراكمية هي: إنكار مجرد وقوعها؛ النظر إليها كبذعة مهددة هدفها نزع الشرعية عن إسرائيل؛ التكرار للمسؤولية عنها. ويتطابق هذا المعتقد الموقف الرسمي الإسرائيلي الذي لا يبدي استعداداً للتوصل إلى تسوية مع ذاكرة النكبة الفلسطينية، لا بل يرفض تأريخها.

الكلمات المفتاحية: النكبة الفلسطينية، ١٩٤٨م، لوحة عمران، الفردوس الفلسطيني، عائد إلى حيفا.

Abstract

This research focuses on the approaches to structuring beliefs and perceptions of the Palestinian Nakba in the Israeli collective consciousness as revealed in the media discourse in Israel. It aims to determine the extent of Israeli recognition or denial of the Palestinian Nakba, and the extent of acceptance of responsibility for its occurrence. The patterns of recognition of the Nakba, and denial of its mere occurrence or responsibility for it, may enable us to gain insight into the way in which it is viewed within the Israeli public sphere, and the extent to which the Nakba and its memory are important elements in shaping the behavioral patterns of the Israeli public in recent years. The results of the research show that the most prominent belief in the Israeli public discourse regarding the Nakba lies in the connection between three cumulative

claims: denying its mere occurrence; viewing it as a threatening innovation aimed at delegitimizing Israel; and denying responsibility for it. This belief matches the official Israeli position, which does not show willingness to reach a settlement with the memory of the Palestinian Nakba, and even refuses to date it.

Keywords: Palestinian Nakba, 1948, Imran's painting, Palestinian paradise, Returning to Haifa.

المقدمة:

اشتغل المتن الروائي العربي، والفلسطيني خاصةً، منذ احتلال فلسطين وقيام الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨، على إنجاز نص سردي متخيل ينطلق من نكبة فلسطين والأحداث المصاحبة لها، من عمليات تطهير عرقي وتهجير قسري وشتات دفع الفلسطينيين إلى جهات الأرض الأربع. وبغض النظر عن مستوى المدونة الروائية، الفلسطينية، وكذلك العربية، التي سعت إلى القبض على لحظة النكبة في الزمان والمكان، أو فيما يسميه ميخائيل باختين "الكرونوتوب الروائي"، فقد استطاعت الرواية العربية، وكذلك الروايات التي كتبها فلسطينيون بلغات أخرى غير العربية، أن تقدم رواية مختلفة عن الرواية الصهيونية لاحتلال فلسطين وقيام الدولة العبرية. صحيح أن الرواية ليست تاريخاً، لكنها سعت إلى تقديم رواية مغايرة، رواية قادرة على سرد الحكاية الحقيقية للاستعمار الصهيوني الكولونيالي الإحالي. وبهذا المعنى تراكمت لدينا نصوص أساسية يمكن النظر إليها بوصفها المدونة السردية المتخيلة لاحتلال فلسطين ونكبتها التي يمر عليها الآن سبعون عاماً.

إن غايتنا بهذا البحث هي النظر في المدونة الروائية حول النكبة، لا بوصف تلك المدونة تاريخاً، فلدينا الكثير من المصادر التاريخية التي سعت إلى نقد المدونة التاريخية الصهيونية وتفكيكها، وإثبات زيفها وأغراضها الأيديولوجية الفاقعة والدعائية الكاذبة، بل من أجل تحليل اللحظة السردية التي استطاعت أن تقدم نصوصاً روائية متخيلة حول النكبة. فالأدب، والمدونة السردية بشكل خاص، يمكن أن يقوم بنفسه كرواية مضادة تدفع القارئ إلى اكتشاف ما سعت الرواية الصهيونية إلى ترسيخه في العقول، الأجنبية على الأخص، وقدرة هذه المدونة على تغيير النظرة السائدة حول النكبة. ودور الرواية لا يقل عما أحدثته الكتابات التاريخية الفلسطينية والعربية حول النكبة، والتي سبقت عمل المؤرخين الإسرائيليين الجدد في فضح الرواية الصهيونية للنكبة.

خلفية تاريخية عن النكبة الفلسطينية

من الصعب الخوض في حدث تاريخي كبير مثل النكبة الفلسطينية، نجم عنه تداعيات واستعصاءات مستدامة وخطيرة، ليس فقط بسبب الافتقار لروايات، أو سرديات، صحيحة ومطابقة وإنما بسبب سيادة بديهيات أو تصوّرات معيّنة، أيضاً، أسهمت كل الأطراف، الدولية والعربية والفلسطينية والإسرائيلية، في ترسيخها وإن لأغراض أو توظيفات سياسية متباينة. ما تقدم يرحّج مقوله مفادها أن "التاريخ يكتبه المنتصرون" وهي تعني أن التاريخ المسطر، وبالتالي المسيطر، ليس هو التاريخ الفعلي، أي إن ثمة تاريخاً معلناً ومهيمناً ومفروضاً، وتاريخاً مخفياً أو محجوباً أو ممنوعاً. ولعل هذا أكثر ما ينطبق على التاريخ المتعلق بصراع الفلسطينيين مع المشروع الصهيوني، إذ إن التاريخ الذي جرى تسطيحه، وأسطرته، طمس وأزاح وهمّش، أكثر مما أظهر أو كشف أو أثبت، على مختلف الأصعدة (كيالي، ٢٠٢٣م). يفترض لفت الانتباه هنا إلى المشكلات الموضوعية والذاتية التي اعتورت تدوين التاريخ الفلسطيني، ويكمن أهمها في:

١. ضعف الفلسطينين، وتشتتهم، وافتقارهم لكيانات سياسية في تلك اللحظة التاريخية المصرية بالنسبة لوجودهم كشعب ولمستقبلهم.
٢. خضوع الفلسطينين لسلطات وسياسات أنظمة مختلفة، ما فرض عليهم مجاملتها، أو تجنب الاشتباك معها.
٣. اعتمادية الحركة الوطنية الفلسطينية على الأنظمة العربية، علما أنها تأخرت بالنشوء بمقدار عقدين تقريبا بعد النكبة، أكثر من اعتمادها في وجودها ومواردها على شعبها.
٤. افتقاد مراكز الأبحاث ووسائل الإعلام الفلسطينية للاستقلالية والعقلية النقدية التي افقدت لها أصلا فصائل الحركة الوطنية الفلسطينية بل حتى قطاع واسع من المثقفين الفلسطينيين.
٥. ذهاب معظم مؤرخي التاريخ الفلسطيني المعاصر، وضمنه تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية، نحو التركيز على الوثائق والخطابات، أكثر من تركيزهم على البحث الاستقصائي والميداني، بشأن الأحداث والوقائع والخيارات (كيالي).

ويمكن إدراك معنى كل ذلك بطريقة تناول حجم المسؤولية العربية عن النكبة الفلسطينية، وسكوت التاريخ الفلسطيني، تقريبا عن دور بعض الأنظمة، المحيطة بفلسطين، في تسهيل إقامة إسرائيل، ومفاخرة مأساة الفلسطينين لا سيما في عدة مسائل تتمثل في أسطورة الجيوش العربية، ومفاخرة مشكلة اللاجئين، وإعاقة وممانعة التشكيل الكياني، وهجرة يهود البلدان العربية، فضلاً عن تخيل واقعاً من دون نكبة، وهي محاور لا يتسع المقام لذكرها، لذا سنحاول ذكر أبرز الروايات العراقية المعاصرة التي اتخذت من النكبة الفلسطينية ١٩٤٨م موضوعاً لها، وهي:

لوحه عمران يونس

وتشترك رواية حسن حميد "أنين القصب" مع "زمن الخيول البيضاء" في تصوير الحياة الفلسطينية قبل النكبة، وفي زمن يبدو، رغم سرمدية، أقرب إلى الحياة الفلسطينية في جريانها قبل انفجار الصراع بين العرب واليهود خلال فترة الانتداب البريطاني. الأمر نفسه نعثر عليه في رواية عبدالله تايه "قمر في بيت دراس" التي تبدأ سردها من لحظة انهيار القوات العثمانية على مشارف مدينة غزة، وعودة أحد أبناء قرية بيت دراس، الذي كان جندياً في الجيش العثماني، إلى قريته مهزوماً حالماً بالذهاب إلى إسطنبول مع قائده التركي (إبراهيم، ١٩٧٠م). ويفعل جمال ناجي الشيء نفسه في روايته "غريب النهر" التي تحكي عن عائلة هاجرت من قرية العباسية عام ١٩٤٨ والتجأت إلى منطقة غور الأردن. لكن الرواية تعود بنا إلى زمن العثمانيين ساردة حكاية أحد أبناء العائلة الذي ضاع في السفر برلك وعاد أبناؤه باحثين عن جذورهم ووطنهم. أما ليلي الأطرش فتعود في روايتها "ترانيم الغواية" إلى زمن الدولة العثمانية وظهور التوجهات القومية بين مواطني الخلافة العثمانية من العرب، وازدياد بطش القائد التركي جمال باشا السفاح، حيث تقدم صورة فلسطين ما قبل النكبة من خلال سرد تاريخ عائلة مسيحية مقدسية (إبراهيم، ١٩٧٨م).

تسعى الأعمال الروائية الفلسطينية، التي تبدأ سردها من نقطة سابقة على زمن الانتداب البريطاني، إلى تصوير الحياة الفلسطينية، رغم متاعب الحياة اليومية والصراع مع الدولة العثمانية، في أواخر أيامها، إلى التهيئة لكتابة لحظة الخروج الكبير للفلسطينيين من بلادهم. وتحضر في المتن الروائي عناصر الطبيعة والحياة المستقرة وجريان العادات والتقاليد الممتدة، وارتهان الإنسان الفرد للجماعة، وسيادة نمط من الإقطاع الزراعي الذي يتفاوت وصفه

في الروايات ما بين نمط الإقطاع الذي يمتلك أجساد الفلاحين وقوة عملهم، والإقطاع الذي يقوم على حيازة ملكية الأرض دون ظلم الفلاحين الذين يعملون عليها (كما يروي أنور حامد في روايته "يافا تعد قهوة الصباح") (خلف، ٢٠١٣م، ص ٣٥) وبغض النظر عن المواقف الأيديولوجية التي تتخذها الأعمال الروائية المكتوبة عن مرحلة ما قبل النكبة، أو التي تفتتح روايتها بوصف الزمن الممتد الواسع، أو القصير، الذي يسبقها، فقد حرصت على بناء مشهد فردوسي للحياة الفلسطينية، أو على الأقل مشهد تجري فيه الحياة في زمن لا تقطعه سوى عثرات الحياة اليومية المعتادة (خلف).

الفردوس الفلسطيني

تتشترك معظم السردية الروائية الفلسطينية في تقديم مشهد الحياة المستقرة، وحياة ما قبل العاصفة، أو الفردوس أو الجنة الفلسطينية، من خلال بناء عالم يُستقى بعضه من المادة التاريخية المتوفرة، بأشكالها المختلفة، من كتابات تاريخية ومذكرات الرحالة وسير الأفراد الفلسطينيين والأجانب الذين عاشوا في تلك الفترة، حيث يسعى الروائيون إلى تصوير مأساة الخروج والشتات والدفع العنيف باتجاه المنفى. هكذا تبدو الحياة، رغم متاعبها اليومية وصراعاتها وهزائمها الفردية، في نصوص تعيد بناء الحياة الفلسطينية قبل صدور وعد بلفور وحلول الانتداب البريطاني محل الدولة العثمانية الراحلة. إنها الحياة الطبيعية التي يحياها البشر في أوطانهم التي عاش فيها أجدادهم منذ مئات السنوات وزاولوا فيها أعمالهم اليومية التي قاموا بها على مدار الزمان (ناجي، ٢٠١٢م).

ولا يختلف الفلسطينيون، الذين اقتلعوا من أرضهم، عن غيرهم من البشر في هذا، ولهذا تسعى الكتابة الروائية إلى تأنيث معمارها الفني بالشخصيات والأحداث اليومية، بما ينسجم مع المادة التاريخية المكتوبة أو الشفوية المروية على لسان الفلسطينيين الذين عاشوا في تلك المراحل التاريخية التي سبقت النكبة. وقد استطاعت الرواية الفلسطينية، وبعض الروايات العربية المكتوبة عن فلسطين، أن تستعيد الحياة المتدفقة في مدن فلسطين وقراها، في سردية مضادة للمقولة الصهيونية التي تتحدث عن "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" (حميد، ٢٠١٣م).

ويمكن أن نعثر في هذه المرحلة على الحضور الكثيف لرمزية الخيل في عدد كبير من النصوص الروائية الفلسطينية، بدءاً من غسان كنفاني، في روايته غير المكتملة "العاشق"، وصولاً إلى روايات يحيى يخلف ورشاد أبوشاور وحسن حميد وإبراهيم نصر الله وسوزان أبو الهوى. ففي معظم هذه الروايات يفسح الروائيون حيزاً واسعاً للحديث عن الخيل وبناء علاقة حميمة بين الفرس وفارسها، لتصوير المشهد الفردوسي الذي ينقطع بشدة وقسوة عندما يموت الفارس أو تموت الفرس أو يتشرد الفارس وتبقى الفرس في الأرض المتروكة (حميد).

فيحيى يخلف في روايته "بحيرة وراء الريح" يبني سرديته للنكبة ومشهد الخروج على الفرس وما تعنيه بالنسبة إلى فارسها الفلسطيني، كما أن موت الفرس قبل اندلاع القتال بين أهل سمخ والعصابات الصهيونية يمثل نذير شؤم في الرواية. وفي المقابل فإن لحاق الفرس بصاحبها بعد الرحيل يمثل إشارة لبزوغ المقاومة في صفوف الفلسطينيين المشردين في المستقبل. وقد عمل إبراهيم نصر الله في "زمن الخيول البيضاء" على وضع الفرس في بؤرة المشهد الروائي، بادئاً المشهد الأول من عمله بفرس مسروقة تعدو بسارقها وصولاً إلى قرية الهادية، وكأنها تستجير بسكان القرية من السارق. ويمكن أن يوحي اسم "الهادية" بالزمن الفردوسي قبل تدفق الهجرة اليهودية إلى فلسطين، كما أن مشهد الفرس الجريحة المسروقة وهي تعدو نحو القرية تمثل إلماعة إلى سرقة فلسطين في قادم الأيام (المدهون، ٢٠١٥م).

زمن الصراع مع الانتداب البريطاني

تسجل رواية النكبة زمن الصراع مع الانتداب بعد حلول القوات البريطانية محل العثمانيين في فلسطين. ونعثر في روايتي سحر خليفة "أصل وفصل" و"حبي الأول" وإبراهيم نصرالله "زمن الخيول البيضاء" وعبدالله تايه "قمر على بيت دراس" (المدھون) ، على سبيل المثال لا الحصر، على تصوير لفترة الانتقال من زمن احتلال إلى زمن احتلال آخر. لكن الصراع مع الانتداب البريطاني وتصوير الهبات الفلسطينية بدءاً من عام ١٩١٧، الذي أصدر فيه اللورد بلفور وعده بإقامة وطن قومي لليهود على أرض فلسطين، وكذلك ثورة ١٩٣٦، وما بعدها من صدامات قامت بين الفلسطينيين من جهة والقوات البريطانية والعصابات الصهيونية من جهة أخرى، حاضراً بقوة في رواية النكبة (أبو شاور، ١٩٠٠م)، فهو العصب الرئيسي للمادة السردية في روايات غسان كنفاني وجبرا إبراهيم جبرا وإبراهيم نصرالله وسحر خليفة ويحيى يخلف ورشاد أبوشاور وفيصل حوراني، من بين روائيين آخرين. فالصراع مع الانتداب هو في وجهه الآخر صراع مع المشروع الصهيوني الذي كان يتهدد للاستيلاء على فلسطين وتهجير أهلها وإحلال المهاجرين اليهود من أوروبا ومناطق أخرى من العالم محل السكان الفلسطينيين الذين عاشوا على أرضهم منذ آلاف السنوات (عاشور، ٢٠١٠م).

ويسعى المتن الروائي إلى استعادة الانتفاضات ضد الاحتلال البريطاني، وبصورة خاصة ثورة ١٩٣٦، لإيجاد تسلسل وتفسير تاريخي لهزيمة ١٩٤٨. ولتحقيق هذا الغرض تدرج تلك الروايات عدداً من الشخصيات التاريخية الواقعية في صلب نسيجها الروائي أحياناً، أو أن شخوص تلك الروايات تشير في سردها وحواراتها إلى تلك الشخصيات التاريخية (خليفة، ٢٠٠٩م)، فعبدالرحيم الحاج محمد والشيخ عزالدين القسام وفوزي القاوقجي والحاج أمين الحسيني وعبدالقادر الحسيني هم شخصيات روائية في الأعمال الروائية المكتوبة عن النكبة. إن سحر خليفة تكرر في روايتها "أصل وفصل" و"حبي الأول" مساحة واسعة لثورة ١٩٣٦ والنضال ضد قوات الانتداب والعصابات الصهيونية عام ١٩٣٩، كما تروي معارك عبدالقادر الحسيني ضد الانتداب واليهود، مكرسة مساحة واسعة في السرد لمعركة القسطل، واستشهاد القائد الفلسطيني، وسقوط الجزء الغربي من مدينة القدس (خليفة). وفي "موفيولا" لتيسير خلف يتابع الروائي رحلات الحاج أمين الحسيني إلى ألمانيا وإيطاليا طلباً للدعم من هتلر وموسوليني، ومن ثم رحيله إلى القاهرة وليبيا بعد سقوط فلسطين، معتمداً في سرده على مواد وثائقية وأرشيفات شخصية وعامة. كما أننا نعثر على ذكر لتلك الشخصيات التاريخية في متن السرد الروائي في معظم الروايات الفلسطينية التي كتبت عن النكبة وسقوط فلسطين، كنوع من الربط الذي يجريه الروائي بين المادة التاريخية المتوافرة وسرده الروائي التخيلي (خليفة، ٢٠١٤م).

ويفرد الروائيون مساحة واسعة من السرد لتصوير مشهد ما قبل السقوط من خلال المعارك التي دارت بين الفلسطينيين والعصابات الصهيونية التي تميزت بالتنظيم والتخطيط الدقيقين وكثافة التسليح. إننا نعثر في روايات النكبة على وصف لمعارك حقيقية دارت بين الفلسطينيين والانتداب البريطاني والعصابات والتشكيلات العسكرية الصهيونية، كما في روايتي سحر خليفة "أصل وفصل"، التي تصور ثورة ١٩٣٦، و"حبي الأول" التي تسجل المعارك التي دارت بين ثوار ١٩٣٦ وكذلك معارك عبدالقادر الحسيني التي خاضها لمنع سقوط القدس في أيدي اليهود (خليفة، ٢٠١٤م).

ثمة بالطبع إدراج للوقائع التاريخية في المتن الروائي، واصطناع لمادة تخيلية حول أحداث النكبة. وتتبادل هاتان المادتان الحضور، أحياناً، والتلازم في أحيان أخرى. وهناك عدد من الروايات المبنية على مادة شفق مروية، أو أنها مستلّة من ذاكرة الروائي نفسه الذي عاش أحداث السقوط وما قبله. فإذا كانت روايتا "أصل وفصل" و"حبي الأول" تعتمدان مذكرات ويوميات كتبها أكرم زعيتر ومحمد عزت دروزة وخليل السكاكيني وقاسم الريماوي (وقد كان الأخير سكرتير "الجهاد المقدس" ورفيق عبدالقادر الحسيني في معاركه ضد الاحتلال البريطاني وفي المعارك التي خاضها ضد العصابات الصهيونية). إن الروايات الأخرى تستخدم المعاشاة الشخصية والذكريات المكتوبة أو المروية حول المعارك التي حدثت، أو أنها تسعى إلى تقديم عالم تخيلي يحاكي المادة التاريخية لكنه يعيد بناء الأمكنة والأزمنة ويؤثثها بالشخصيات التي تخدم رؤيته ومنظوره للتراجيديا الفلسطينية (أبو الهوى، ٢٠١٠م).

الخروج من الفردوس: مشهد السقوط والذهاب إلى المنفى

تركز روايات النكبة على تصوير لحظة السقوط من خلال إعادة بناء مشهد الصراع الذي سبق سقوط فلسطين. ويسعى كل روائي من جانبه إلى تأنيث اللحظات الأخيرة من مشهد ما قبل السقوط بالشخصيات والأحداث، المأخوذة من السرد التاريخي وذكريات الأشخاص الذين عاشوا تلك اللحظة، بمن فيهم الروائيون أنفسهم، والتخييل الروائي واصطناع الشخصيات، لتقديم سرد متماسك حول لحظة السقوط وخروج مئات آلاف الفلسطينيين إلى البلدان المجاورة التي تحيط بفلسطين. وتواصل أجيال من الروائيين الفلسطينيين كتابة حكايات جديدة للخروج الفلسطيني بوصفه اللحظة المؤسسة للوعي الذي بنيت عليه، فيما بعد، لحظة المقاومة وانبعاث الوطنية الفلسطينية المعاصرة (أبو الهوى).

ثمة سرد يصف المعارك التي دارت والبطولات الفردية والجماعية التي تحققت رغم ضعف التسليح وتخلي الإخوة والتآمر البريطاني وتنظيم العصابات الصهيونية التي تحولت قبل سنوات قليلة من النكبة إلى جيش كلاسيكي حديث استطاع إيقاع الهزيمة بالفلسطينيين الذين خدعتهم القيادات العربية، وقياداتهم الفلسطينية التقليدية المتصارعة وغير المنظمة، فأوقعت ثورتهم عام ١٩٣٦ و١٩٣٩، لتعبّد الطريق للسقوط الكبير عام ١٩٤٨م (أبو الهوى، ٢٠١٨م)، حيث تبني روايات النكبة مشهد الخروج التراجيدي من فلسطين في مواضع ومواقع جغرافية مختلفة من فلسطين، وباتجاه بلدات ومدن فلسطينية من أرض فلسطين التاريخية، أو في اتجاه شرق الأردن أو سوريا أو لبنان، أو العراق، راسمةً حدود تفكك الحياة الفلسطينية وتبعثر المواطنين الفلسطينيين إلى جهات الأرض، واللجوء والشتات للذين لم يعنيا فقط محو فلسطين عن الخريطة بل انهيار حيوات البشر، وموتهم، وتشردهم وفقدانهم أملاكهم، وانقطاع سلسلة حياتهم، واضطرارهم إلى العيش في خيام يتسولون لقمة عيشهم من وكالة غوث اللاجئين (الأونروا)، والمساعدات التي يقدمها المحسنون والدول والجمعيات الخيرية (أبو السيف، ٢٠١٦م).

فروايات جبرا إبراهيم جبرا "صيادون في شارع ضيق"، و"السفينة"، و"البحث عن وليد مسعود"، تستعيد في بعض فصولها ملامح الخروج من القدس الغربية، وروايتا يحيى يخلف "بحيرة وراء الريح" و"ماء السماء" تسجلان الخروج من سمخ ومنطقة طبرية. أما رضوى عاشور في روايتها "الطنطورية" فتستعيد مذبحة الطنطورة والخروج من حيفا، ويسجل رشاد أبو شاور الخروج من قرنتي ذكرين وتل الصافي في "أيام الحب والموت"، ويسجل عبدالله تايه في "قمر في بيت دراس" وسوزان أبو الهوى في "الأزرق بين السماء والماء" (أبو السيف)، الخروج من بيت

دراس واللجوء إلى غزة، وتستعيد سوزان أبو الهوى حكاية الخروج من قرية عين حوض وطرد سكانها في "بينما ينام العالم"، فيما تحكي ليلاس طه الخروج من القدس في روايتها "اللوز المر"، ويصف عاطف أبوسيف مشهد سقوط يافا في روايته "الحاجة كريستينا"، كما يحكي ربيعي المدهون عن الرحيل الإشكالي لبطلته الفلسطينية الأرمنية من عكا، من بين أعمال أخرى كتبها فلسطينيون وعرب (التايه، ٢٠٠١م).

لكن هذه الروايات لا تقفل المشهد على الخروج والشتات الأبدي، اللذين لا يمكن عكسهما، بل تفتح المشهد على أمل العودة والمقاومة، لأنها، في معظمها، مكتوبة انطلاقاً من رؤية أيديولوجية مقاومة، وفي زمن ينتمي بصورة عامة إلى ولادة المشروع الوطني، أي زمن ولادة الهوية الفلسطينية المعاصرة من خلال تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية وانطلاقة الثورة الفلسطينية عام ١٩٦٥. من رحم هذه المرحلة التاريخية ولدت معظم الروايات الفلسطينية، وكتبت بدءاً من تلك اللحظة كنوع من مراجعة سردية لما حدث (كنفاني، ١٩٦٣م).

بغض النظر عن المعالجات المختلفة للنكبة وسقوط فلسطين، فإن صورة النكبة هي الوجه الآخر لصورة تبلور الهوية الفلسطينية، فالنكبة، كما تتمرأ في السرد، وفي الإبداع الفلسطيني عامة، هي الوجه الآخر لولادة فلسطين أخرى، لا فلسطين العثمانية، أو الانتدابية، بل فلسطين بوصفها هوية وطنية مقاومة. نعر على هذه الرؤية في روايات غسان كنفاني وجبرا إبراهيم جبرا وإلياس خوري ورضوى عاشور ويحيى يخلف ورشاد أبو شاور وفيصل حوراني وحسن حميد ونبيل خوري وسحر خليفة وإبراهيم نصرالله، من بين روائيين آخرين (كنفاني).

النقاش الدائر حول أسباب حدوث تهجير الفلسطينيين

(١) **المواقف الابتدائية:** في العقود الأولى بعد وقوع التهجير، ظهرت هناك مدرستان متناقضتان تماماً لتفسير الأحداث. حيث «ترغم إسرائيل أن العرب تركوا بلادهم بسبب الأوامر التي جاءتهم، والخوف الذي ألقاهم فيه قادتهم الذين أرادوا الميدان خالياً لاستغلاله في حرب ١٩٤٨م»، بينما «يقول العرب أن شعبهم طرد من وطنه تحت وطأة السلاح والرعب الذي تعمّد الصهاينة إثارته». وقدّمت أيضاً تفسيرات أخرى، فمثلاً يؤكد بيريز وغابي على العنصر النفسي: الهلع والهستيريا اللذان غمرا الفلسطينيين مما أدى إلى النزوح (كنفاني، ١٩٦٩م). فقد قُدمت وجهة النظر الإسرائيلية في المنشورات الصادرة عن المؤسسات الإسرائيلية المتنوعة مثل مركز المعلومات الوطني، ووزارة التعليم (في مناهج التاريخ والتربية الوطنية)، وجيش الدفاع الإسرائيلي، بالإضافة إلى المؤسسات المجتمعية الإسرائيلية-اليهودية التي تتضمن: الجرائد، ومذكرات الذين قاتلوا في حرب ١٩٤٨م، ودراسات الأوساط البحثية. وعلى أية حال، ظهر عدد من الباحثين اليهود الذين يعيشون خارج إسرائيل -منهم بيريز وغابي- ممن كانت لهم وجهة نظر مغايرة. وتقول وجهة النظر تلك أن بعض الفلسطينيين غادروا أراضيهم بمحض إرادتهم، بينما طرد الآخرون منها على أيدي اليهود والقوات العسكرية الإسرائيلية (الأطرش، ٢٠١٤م).

(٢) **التغيرات في الموقف الإسرائيلي تجاه أسباب التهجير أواخر السبعينات:** عارضت المؤسسات المجتمعية الإسرائيلية-اليهودية الرواية الصهيونية التي تنفي مسؤولية التهجير عن إسرائيل، وبدأ ذلك في أواخر سبعينات القرن العشرين. وكانت هناك العديد من الدراسات البحثية ومقالات الصحف اليومية، بالإضافة إلى بعض مذكرات الذين شاركوا في حرب ١٩٤٨م التي تُقدّم رواية أكثر حيادية للأحداث. وتقول الرواية الجديدة أن بعض الفلسطينيين غادروا أوطانهم طوعاً بمحض إرادتهم (بسبب دعوات العرب أو قادتهم إلى الرحيل الجزئي تجنباً للوقوع في الخوف والانهيار المجتمعي)، بينما طرد الآخرون على أيدي القوات اليهودية الإسرائيلية (الأطرش).

التغيرات بعد ظهور «المؤرخين الجدد» - أواخر الثمانينات

لقد تغير المجتمع الإسرائيلي بشكل جذري في أواخر ثمانينات القرن العشرين. حيث ازداد نشر المقالات الصحفية المحايدة والموضوعية وكذلك التي تنتقد السياسات الإسرائيلية، بالإضافة إلى مذكرات المحاربين القدامى في حرب ١٩٤٨م التي تتناول الأمر بشكل محايد. وفي الوقت ذاته، بدأت المنظمات الإسرائيلية غير الحكومية بتناول الروايات الفلسطينية والمحايدة للأحداث في منشوراتها. بالإضافة إلى أن إسرائيل في الثمانينات أتاحت جزءاً من أرشيفها للمؤرخين كي يبحثوا فيه. وتزامن ذلك مع ظهور العديد من المؤرخين الإسرائيليين الذين يُسمّون بالمؤرخين الجدد- الذين امتلكوا تحليلاً أكثر انتقاداً للتاريخ الإسرائيلي (طه، ٢٠١٥م).

أما الروايات الرسمية والتاريخية العربية فبالكاد قد تغيرت مع مرور الوقت، كما أنها لقيت دعمًا من بعض المؤرخين الجدد. فمثلاً يقول إيلان بابي أن التهجير كان عملية تطهير عرقي ويستدل على ذلك بالتحضيرات الصهيونية للتهجير والتي سبقت حدوثه بسنوات، وكذلك يوقّر بابي تفاصيلاً أكثر عن عملية التخطيط لطرد الفلسطينيين من قبل مجموعة يسميها «المُستشاريّة» ويقول ببني مورييس أن هناك تطهيراً عرقياً حدث خلال تهجير الفلسطينيين، وأن «هناك ظروفًا في التاريخ تُبرّر القيام بالتطهير العرقي، فعندما يكون الخيار منحصراً بين التطهير العرقي أو الإبادة الجماعية لجميع أبناء شعبك، فأنا أفصّل التطهير العرقي» (طه، ٢٠١٥، ص ١٩).

واستناداً إلى (إيان بلاك) محلل لشؤون الشرق الأوسط في صحيفة الجارديان- فإن «الكثير يعتبرون» أن تهجير الفلسطينيين قد اشتمل على التطهير العرقي. ولا يقبل جميع المؤرخون وصف التهجير بأنه تطهير عرقي. وتستخدم الوثائق الإسرائيلية التي تعود لعام ١٩٤٨م مصطلح «التطهير» للإشارة إلى طرد العرب من مناطقهم. ويعتبر إفرام كارش واحداً من المؤرخين الإسرائيليين القلائل الذين يعتبرون أن معظم النازحين غادروا البلاد بمحض إرادتهم أو بتوجيهات من القيادات العربية، بالرغم من أن إسرائيل حاولت إقناعهم بالبقاء. ويقول أن التهجير الذي أجراه الإسرائيليون في اللد والرملة كان لضرورة عسكرية. وبعدما تمكنت منظمة عكيفوت الإسرائيلية غير الحكومية من رفع المنع والرقابة عن مذكرات بن-غوريون عام ٢٠٢١م، أظهرت المذكرات أن بن-غوريون في ١٩٤٩م وجّه الإسرائيليين لدفع الفلسطينيين المهجرين من اللد والرملة نحو الأردن، وذلك ردّاً على محاولات عودتهم إلى مُدُنِهِمْ، حيث قال: «يجب علينا أن 'نضايقهم' بلا رحمة، كما أننا يجب أن نضايق ونحفز اللاجئين في الجنوب (جنوب فلسطين) أيضاً كي يتحركوا نحو الشرق (نحو الأردن)، ذلك لأنهم لن يذهبوا إلى البحر، وكذلك لن يتوجهوا إلى مصر لأن مصر لن تسمح لهم بالدخول» (خوري، ٢٠٠٢م، ص ١٢).

الذاتية

النكبة مصطلح فلسطيني يعبر عن المأساة الإنسانية المتعلقة بتشريد عدد كبير من الشعب الفلسطيني خارج دياره. وهو الاسم الذي يطلقه الفلسطينيون على تهجيرهم وهدم معظم معالم مجتمعهم السياسية والاقتصادية والحضارية عام ١٩٤٨. وهي السنة التي طرد فيها الشعب الفلسطيني من بيته وأرضه وخسر وطنه، لصالح إقامة الدولة اليهودية- إسرائيل. وتشمل أحداث النكبة، إحتلال معظم أراضي فلسطين من قبل الحركة الصهيونية، وطرد ما يربو على ٧٥٠ ألف فلسطيني وتحويلهم إلى لاجئين، كما تشمل الأحداث عشرات المجازر والفظائع وأعمال النهب ضد الفلسطينيين، وهدم أكثر من ٥٠٠ قرية وتدمير المدن الفلسطينية الرئيسية وتحويلها إلى مدن

يهودية. طرد معظم القبائل البدوية التي كانت تعيش في النقب ومحاولة تدمير الهوية الفلسطينية ومحو الأسماء الجغرافية العربية وتبديلها بأسماء عبرية وتدمير طبيعة البلاد العربية الأصلية من خلال محاولة خلق مشهد طبيعي أوروبي. بدأ التطهير العرقي في عام ١٩٤٧ بعد إقترح الأمم المتحدة لقرار تقسيم فلسطين. بدأت العصابات الصهيونية بعملية دالت لبدأ التطهير العرقي على نطاق واسع لفرض سياسة الأمر الواقع على الأرض لإبطال قرار التقسيم حتي إن أرادت الأمم المتحدة تنفيذه. أثرت النكبة بشكل كبير على الثقافة الفلسطينية وهي رمز تأسيسي للهوية الفلسطينية، جنبا إلى جنب "حنظلة" والكوفية والمفتاح الرمزي. كُتب عدد لا يحصى من الكتب والأغاني والقصائد عن النكبة. وصف الشاعر الفلسطيني محمود درويش النكبة بأنها "حاضر ممتد يبشر بالاستمرار في المستقبل". على الرغم من أن السياسيين اختاروا ١٥/٥/١٩٤٨ لتأريخ بداية النكبة الفلسطينية، إلا أن المأساة الإنسانية بدأت قبل ذلك عندما هاجمت عصابات صهيونية إرهابية قرى وبلدات ومدن فلسطينية بهدف إبادة أو دب الذعر في سكان المناطق المجاورة بهدف تسهيل تهجير سكانها لاحقاً.

الهوامش

- (١) كيالي، ماجد، (٢٠٢٣م). التاريخ المخفي في الرواية الرسمية عن النكبة الفلسطينية. مقالة منشورة في جريدة المجلة، الطابق ١٠، البناية ٧، شارع المنطقة الصناعية، لندن، ص ١٤.
- (٢) نفس المصدر، ص ١٥
- (٣) إبراهيم، جبرا، (١٩٧٠م). السفينة. ط ٢، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ص ٢٢.
- (٤) إبراهيم، جبرا، (١٩٧٨م). رواية البحث عن وليد مسعود. ط ٣، دار الثقافة العربية، مكتبة الشرق الأوسط، عمان - الأردن، ص ٦١.
- (٥) خلف، تيسير، (٢٠١٣م). رواية موفيولا. ط ١، دار فضاءات للنشر والتوزيع، شارع الملك حسين، عمان - الاردن، ص ٣٥.
- (٦) نفس المصدر.
- (٧) ناجي، جمال، (٢٠١٢م). رواية غريب النهر. ط ٢، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت - لبنان، ص ٤٤.
- (٨) حميد، حسن، (٢٠١٣م). رواية أنين القصب. ط ٣، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق - سوريا، ص ١٧.
- (٩) نفس المصدر.
- (١٠) المدهون، ربيعي، (٢٠١٥م). مصائر: كونسيرتو الهولوكوست والنكبة. ط ١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، ص ٢٣.
- (١١) نفس المصدر.
- (١٢) أبو شاور، رشاد، (١٩٠٠م). رواية أيام الحب والموت. ط ١، دار العودة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ص ٥٠.
- (١٣) عاشور، رضوى، (٢٠١٠م). رواية الطنطورية. ط ٢، دار الشروق المصرية، القاهرة - مصر، ص ٨٠.
- (١٤) خليفة، سحر، (٢٠٠٩م). رواية أصل وفصل. ط ١، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ص ٦٠.
- (١٥) نفس المصدر.

- ١٦) خليفة، سحر، (٢٠١٤م). رواية حبي الأول. ط٣، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ص ٥٢.
- ١٧) نفس المصدر.
- ١٨) أبو الهوى، سوزان، (٢٠١٠م). رواية بينما ينام العالم. ط١، ترجمة: سامية شنان، دار بلومزبري، مؤسسة قطر للنشر، الدوحة - قطر، ص ٤٠.
- ١٩) نفس المصدر.
- ٢٠) أبو الهوى، سوزان، (٢٠١٨م). رواية الأزرق بين السماء والماء. ط١، ترجمة: محمد عصفور، مطبعة جامعة حمد بن خليفة للنشر، الدوحة - قطر، ص ٤٤.
- ٢١) أبو سيف، عاطف، (٢٠١٦م). رواية الحاجة كريستينا. ط١، دار الأهلية للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ص ٥٦.
- ٢٢) نفس المصدر.
- ٢٣) التايه، عبد الله، (٢٠٠١م). رواية قمر في بيت دراس. ط١، دار الكلمة للنشر والتوزيع، غزة - فلسطين، ص ٨٠.
- ٢٤) كنفاني، غسان، (١٩٦٣م). رواية رجال في الشمس. ط١، منشورات رمال، بيروت - لبنان، ص ٣٦.
- ٢٥) نفس المصدر.
- ٢٦) كنفاني، غسان، (١٩٦٩م). رواية عائد إلى حيفا. ط١، منشورات رمال، بيروت - لبنان، ص ٤٠.
- ٢٧) الأطرش، ليلى، (٢٠١٤م). رواية ترانيم الغواية. ط١، منشورات ضفاف، بيروت - لبنان، ص ٦١.
- ٢٨) نفس المصدر.
- ٢٩) طه، ليلاس، (٢٠١٥م). رواية اللوز المر. ط٢، ترجمة: خلود عمرو، مطبعة جامعة حمد بن خليفة للنشر، الدوحة - قطر، ص ١٩.
- ٣٠) نفس المصدر.
- ٣١) خوري، نبيل، (٢٠٠٢م). رواية حارة النصارى. ط١، دار النهار للنشر، بيروت - لبنان، ص ١٢.

المصادر

١. كيالي، ماجد، (٢٠٢٣م). التاريخ المخفي في الرواية الرسمية عن النكبة الفلسطينية. مقالة منشورة في جريدة المجلة، الطابق ١٠، البناية ٧، شارع المنطقة الصناعية، لندن، ص ١٤.
٢. إبراهيم، جبرا، (١٩٧٠م). السفينة. ط٢، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ص ٢٢.
٣. إبراهيم، جبرا، (١٩٧٨م). رواية البحث عن وليد مسعود. ط٣، دار الثقافة العربية، مكتبة الشرق الأوسط، عمان - الأردن، ص ٦١.
٤. خلف، تيسير، (٢٠١٣م). رواية موفيو لا. ط١، دار فضاءات للنشر والتوزيع، شارع الملك حسين، عمان - الأردن، ص ٣٥.
٥. ناجي، جمال، (٢٠١٢م). رواية غريب النهر. ط٢، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت - لبنان، ص ٤٤.
٦. حميد، حسن، (٢٠١٣م). رواية أنين القصب. ط٣، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق - سوريا، ص ١٧.

٧. المدهون، ربعي، (٢٠١٥م). مصائر: كونيشرتو الهولوكوست والنكبة. ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، ص ٢٣.
٨. أبو شاور، رشاد، (١٩٠٠م). رواية أيام الحب والموت. ط١، دار العودة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ص ٥٠.
٩. عاشور، رضوى، (٢٠١٠م). رواية الطنطورية. ط٢، دار الشروق المصرية، القاهرة - مصر، ص ٨٠.
١٠. خليفة، سحر، (٢٠٠٩م). رواية أصل وفصل. ط١، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ص ٦٠.
١١. خليفة، سحر، (٢٠١٤م). رواية حبي الأول. ط٣، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ص ٥٢.
١٢. أبو الهوى، سوزان، (٢٠١٠م). رواية بينما ينام العالم. ط١، ترجمة: سامية شنان، دار بلومزبري، مؤسسة قطر للنشر، الدوحة - قطر، ص ٤٠.
١٣. أبو الهوى، سوزان، (٢٠١٨م). رواية الأزرق بين السماء والماء. ط١، ترجمة: محمد عصفور، مطبعة جامعة حمد بن خليفة للنشر، الدوحة - قطر، ص ٤٤.
١٤. أبو سيف، عاطف، (٢٠١٦م). رواية الحاجة كريستينا. ط١، دار الأهلية للنشر والتوزيع، عمان - الاردن، ص ٥٦.
١٥. التايه، عبد الله، (٢٠٠١م). رواية قمر في بيت دراس. ط١، دار الكلمة للنشر والتوزيع، غزة - فلسطين، ص ٨٠.
١٦. كنفاني، غسان، (١٩٦٣م). رواية رجال في الشمس. ط١، منشورات رمال، بيروت - لبنان، ص ٣٦.
١٧. كنفاني، غسان، (١٩٦٩م). رواية عائد إلى حيفا. ط١، منشورات رمال، بيروت - لبنان، ص ٤٠.
١٨. الأطرش، ليلى، (٢٠١٤م). رواية ترانيم الغواية. ط١، منشورات ضفاف، بيروت - لبنان، ص ٦١.
١٩. طه، ليلاس، (٢٠١٥م). رواية اللوز المر. ط٢، ترجمة: خلود عمرو، مطبعة جامعة حمد بن خليفة للنشر، الدوحة - قطر، ص ١٩.
٢٠. خوري، نبيل، (٢٠٠٢م). رواية حارة النصارى. ط١، دار النهار للنشر، بيروت - لبنان، ص ١٢.

References

1. Kayali, M., (2023). **The hidden history in the official account of the Palestinian Nakba**. Article published in Al-Majalla newspaper, 10th floor, Building 7, Industrial Zone Street, London, p. 14.
2. Ibrahim, J., (1970). **Ship**. 2nd ed., Dar Al-Adab for Publishing and Distribution, Beirut - Lebanon, p. 22.
3. Ibrahim, J., (1978). **The novel, the search for Walid Masoud**. 3rd ed., Arab Culture House, Middle East Library, Amman - Jordan, p. 61.
4. Khalaf, T., (2013). **Moviola's novel**. 1st ed., Faza'at Publishing and Distribution House, King Hussein Street, Amman - Jordan, p. 35.
5. Nagy, J., (2012). **Strange river novel**. 2nd ed., Arab House of Science Publishers, Beirut - Lebanon, p. 44.
6. Hamid, H., (2013). **The moan of the cane novel**. 3rd ed., Publications of the Syrian General Book Organization, Ministry of Culture, Damascus - Syria, p. 17.

7. Al-Madhoun, R., (2015). **Destinies: the Holocaust concert and the Nakba**. 1st ed., The Arab Foundation for Studies and Publishing, Beirut - Lebanon, p. 23.
8. Abu Shawar, R., (1900). **The days of love and death novel**. 1st ed., Dar Al-Awda for Printing and Publishing, Beirut - Lebanon, p. 50.
9. Ashour, R., (2010). **Al-Tantouria novel**. 2nd ed., Dar Al-Shorouk, Egypt, Cairo - Egypt, p. 80.
10. Khalifa, S., (2009). **A novel, an origin and a chapter**. 1st ed., Dar Al-Adab for Publishing and Distribution, Beirut - Lebanon, p. 60.
11. Khalifa, S., (2014). **My first love novel**. 3rd ed., Dar Al-Adab for Publishing and Distribution, Beirut - Lebanon, p. 52.
12. Abu al-Hawa, S., (2010). **A novel while the world sleeps**. 1st ed., translated by: Samia Shannan, Dar Bloomsbury, Qatar Publishing Corporation, Doha - Qatar, p. 40.
13. Abul-Hawa, S., (2018). **Blue novel between sky and water**. 1st ed., translated by: Mohammed Asfour, Hamad Bin Khalifa University Press, Doha - Qatar, p. 44.
14. Abu Seif, A., (2016). **Need Christina's novel**. 1st ed., Al Ahlia Publishing and Distribution House, Amman - Jordan, p. 56.
15. Al-Tayeh, A., (2001). **A moon novel in the house of Dars**. 1st ed., Dar Al-Kalima for Publishing and Distribution, Gaza - Palestine, p. 80.
16. Kanafani, Gh., (1963). **A man's novel in the sun**. 1st ed., Ramal Publications, Beirut - Lebanon, p. 36.
17. Kanafani, Gh., (1969). **A novel back to Haifa**. 1st ed., Ramal Publications, Beirut - Lebanon, p. 40.
18. Al-Atrash, L., (2014). **Seduction hymns novel**. 1st ed., Dafaf Publications, Beirut - Lebanon, p. 61.
19. Taha, L., (2015). **Bitter almond novel**. 2nd ed., translated by: Kholoud Amr, Hamad Bin Khalifa University Press, Doha - Qatar, p. 19.
20. Khoury, N., (2002). **The Christian quarter**. 1st ed., Dar Al-Nahar Publishing, Beirut - Lebanon, p. 12.